الفصل الرابع

الصحة النفسية للأسرة

الصحة النفسية للأسرة

تمهيد : الأهمية الزائدة للبيت :

يعتبر البيت هو العامل الحيوى والقوى فى تشكيل شخصية الفرد حيث يتربى فيه، ويتلقى عمليات التهذيب المختلفة، ثم إنه مكان تربية النشء ومصدر التأثير فى الأجيال سواء أدى هذه المهمة بدرجة ناجحة أو فاشلة.

إن مفهوم البيت لم يتغير كثيرًا على مدار آلاف السنين منذ نشأة الحياة البربرية حيث كانت تدافع الأم عن فروخها بغريزتها الفطرية ضد كل مكدرات وشوائب الحياة حتى ذلك اليوم الذى ظهرت فيه الفلسفات الخاصة بالطفولة وعلم تدريب الأطفال وظهور الآداب الخاصة بالأطفال، فمازال مفهوم الأمومة ثابتًا ومحددًا بصورة كبيرة وغير قابل للاعتراض أو الجدل، ويظهر ذلك واضحًا وجليًا فى السلسلة الحيوانية حيث يعتبر البيت مكانًا مقدسًا لا يستطيع أى سالب أو ناهب أن يتعدى على حريته؛ لأن الآباء يدافعون عن أبنائهم حتى آخر نفس فى حياتهم، إن أى إنسان أو مجموعة أو مذاهب وعقيدة لا يستطيع أن ينكر ضرورة البيت المناسب الذى يتصدره والدان متعاونان فى مهمة تربية أطفالهم، وإن تم إنكار ذلك فذلك هو الجهل بعينه.

ما الذى يصنع البيت المناسب؟ ما الذى يجعل شخصين رجلًا وامرأة والدين مناسبين؟ إن شهادة الأخصائيين الاجتماعيين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وجميع العاملين فى ذلك المجال المتسع لعلم الوراثة الإنسانى توضح أن هناك ملامح

أساسية للبيت المناسب وللوالدين المتكافئين والمناسبين للأسرة السليمة، وذلك من خلال الجانب الإيجابى لهذا الموضوع، وعلى النقيض منه خلال الجانب السلبى نجد أن شهادة المحاكم والقضاة وخاصة محاكم الأحداث ومعاهد التقويم السلوكى والجميع يتفقون على أن هناك ملامح أساسية للبيت غير المناسب وكذلك الوالدين غير الملائمين، إن البيت المناسب هو ذلك البيت الذى يوجد به الانسجام والتعاطف بين الآباء بعضهم البعض وبين الآباء وأطفالهم، ويوجد به الاستقرار الاقتصادى الذى يجعل الأعضاء الكبار فى الأسرة يقومون بدورهم فى توجيه الصغار، ذلك البيت الذى يوجد فيه تحديد دقيق يفرق بين الحرية وبين الكبت والقمع، ذلك البيت الذى يوجد فيه الحب والحماية للأطفال بصورة متاحة وغير فاشلة، ذلك البيت الذى لا توجد به موانع تمنع انتشار الجو الاجتماعى السليم الذى يحافظ فيه الفرد على شخصيته وتظهر فيه الفردية السليمة غير المضرة بالبناء الاجتماعى، ذلك البيت الذى يوجد به الاهتمام بالمجتمع من خلال مفهوم صحى وترتفع فيه الروح المعنوية بين أعضائه.

الخصائص المميزة للوالدين (الأب – الأم) :

إن كون الوالد ولى أمر ووصيًا على بيته يعرف بأنه ذلك الوالد الذى يجلب الرضا والطمأنينة والسعادة لرفقائه فى البيت، هو ذلك الوالد الذى يقوم بدور الأبوة كما هو مطلوب لجلب الرعاية لأولاده، ويهتم بما يهتمون به ويفخر بإنجازاتهم ويتعاطف مع مشكلاتهم ويكون مدركًا لضروراتهم النفسية، وخاصة مع ذلك الجيل الصغير الذى يواجه مشكلاته الكثيرة بدون أوامر تقيد من حرياتهم إلا عند الضرورة، وهو ذلك الأب الذى يصغى لأولاده بروح طيبة لا يحس بأنه مجبر على ذلك خارج إطار التحريم والمنع والحظر المقيد للحريات، هو ذلك الأب الذى يدرك أن الأبوة مهمتها تربية صغاره؛ لتنشئتهم على عادات سليمة سواء كانوا رجالًا أو نساءً يربيهم على الأخلاق القويمة، وعلى الاكتمال الذاتى الذى يضمن لهم إنجازًا ناجحًا فى المستقبل وفى شئون حياتهم عندما يكبرون، ذلك الأب الذى

يؤسس بيته الذى يكون فيه الفرد مكتملًا نفسيًا واجتماعيًا وعاطفيًا. ويستطيع أن يقوم بدور الأمومة من خلال تلك المؤسسة الأسرية، ومن هذا نرى أن الأسرة فى حد ذاتها عالم ومن ثم فأولئك الذى يتحكمون فيه أو يديرونه يحتاجون إلى مهارات متنوعة وكثيرة.

الإعداد غير الكامل لمعظم الأزواج عند تكوين بيوتهم :

بينما يوجد دليل قوى فى مناطق معينة بأن معظم الآباء الأذكياء الذين تتوفر لديهم النية السليمة فى تأسيس أنفسهم وإعدادهم لكى يقوموا بمسئولياتهم ووظائفهم فإنه لا تزال نسبة كبيرة من الأشخاص المتزوجين لا يتوفر لهم التدريب الأولى قبل الزواج للاضطلاع بمسئولياتهم كآباء، وأيضًا لا يحاولون تأهيل أنفسهم بعده.

ولقد أصبح من المعروف أن التكيف خلال الزواج لا يتعدى نسبة ٢٥٪ عن كل مائة حالة زواج تتحطم فى نهايتها أو تنتهى فى محاكم الأحوال الشخصية، بينما تظل النسبة الباقية مستمرة بحكم العقد والإجبار لا بحكم الود والتفاهم، ويوجد القليل من الأزواج حاليًا يقفون فى محراب الأسرة لكى يحافظوا على تأسيس بيتهم والوقوف ضد تيارات ومشكلات الحياة التى لا تنتهى.

إن معظم الأزواج عندما يتزوجون يكون لديهم ذلك الاستحسان للزواج، ولكن ليس لديهم ذلك التكيف العاطفى أو الشخصى الذى من مميزاته أن يوجد الانسجام والرضا فى البيت الأسرى، إن معظمهم أيضًا لديهم جهل كثير بالنمو النفسى للشخص من خلال مراحله كمراهق حيث يكبر ويصبح زوجًا ناجحًا، ويوجد لديهم معلومات قليلة فقط عن المشكلات التى توجد فى مرحلة الطفولة ومشاركة الألعاب والمغامرة وغرس تلك الخصائص الأدبية والدينية، والكثير يعتقد بأن الأزواج ليس لديهم المعلومات الصحيحة الخاصة بالعلاقات الأسرية، ولا ذلك الفهم الصحيح للتركيبات البيولوجية وللعمليات النفسية لأعضاء

الأسرة، وكذا لديهم معلومات ضئيلة عن علم الصحة الجنسى، ولكن لحسن الحظ يوجد الكثير الذى يراعى الصحة الجسمانية من خلال الزيجات الأسرية.

الحاجة للتدريب على الحياة الأسرية :

إن أحد الاعتبارات المهملة بصورة كبيرة فى التنظيم الاجتماعى هو ذلك الاعتبار الذى يشمل المؤسسة الأسرية، ويزعم البعض أن الأسرة تستطيع أن تدبر شئونها بنفسها، وأن الأبوة شىء طبيعى يستطيع أن يوجد بطريقة آلية وأن كل فرد يستطيع أن يتم إعداده تلقائيًا. إن الطبيعة تستطيع أن تهب معظم الأفراد المقدرة البيولوجية لكى يربى الفرد أطفاله، ولكنها لا تستطيع أن تهب كل فرد القدرات العاطفية والمزاجية لكى يربيهم بطريقة سليمة ويشرف على تكوين شخصياتهم بصورة طبيعية، ولا تستطيع الطبيعة أيضًا أن تؤسسهم بصورة أصلية وتمدهم بالمعلومات والخلفية الثقافية التى تدربهم فى أثناء سنوات الطفولة ومرحلة المراهقة، إن كل أب يحتاج إلى إعداد أولى ومنظم لكى يقوم بوظائفه بنجاح فى مرحلة أبوته كمربى للأطفال وكمؤسس لمنزل الأسرة.

إن التعليم والتدريب على الحياة الأسرية لم يصل إلى حده المطلوب فى مجتمعاتنا، وأننا نعتبر أنه من الضرورى لكل مهنة أن يتم التدريب عليها كمهنة الطب والقانون والتدريس والطهى والزراعة والأعمال المكتبية وأعمال البيع والشراء وآلاف المهن الأخرى الموجودة فى العالم، وأن الإعداد لتكوين حياة أسرية هو أحد هذه المهام أو المتطلبات التى تتطلب تدريبًا وجهودًا كثيرة لو أنها تحدث بطريقة غير منظمة حاليًا، وإن علماء النفس والاجتماع والأخصائيين الاجتماعيين يشعرون ويطالبون بضرورة ذلك التدريب وذلك التعليم للحياة الأسرية بشدة.

إن المجلس القومى للتعليم الأبوى والأسرى والمجلس القومى للعلاقات الأسرية أكدا على ضرورة الاهتمام بتعليم الكبار والمقبلين على الزواج، وتم إنشاء هيئات ومؤسسات محلية وقومية تقدم برامج تدريبية فى علم نمو الأطفال وفى

العلاقات الأسرية سواء بصورة تطوعية أو بصورة رسمية من خلال كليات ودورات تدريبية، والشيء السلبى فى هذا الاتجاه أن معظم الآباء الذين هم فى حاجة للمساعدة المقدمة من خلال العمل التطوعى لا يتم تسجليهم باستثناء الأفراد الذين يطمحون فى أن يربوا أطفالهم بطريقة سليمة، وأن هذه الدورات التدريبية تقدم من خلال مدارس عليا وكليات تكفل لهم التكيف العاطفى والصحى.

الآن يحظى هذا الموضوع باهتمام كبير، ومثل هذه المنظمات والجهات التى تقدم هذه التدريبات مليئة بالأخصائيين المهنيين الذى يدربون على الحياة الودية الأسرية وبناء الأسرة على أسس علمية سليمة.

الأزواج والزوجات سينو التوافق :

إن أحد الخصائص المهمة للفرد الناضج هو أن ينظم عاطفيًّا من الطفولة فى إطار الأسرة ويستطيع أن يواجه عالمه.

إن العلاقات فى الزيجات تعتمد على ذلك الفطام العاطفى من عدمه، حيث تخريج فرد للمجتمع غير ملائم لبناء الأسرة من عدمه.

وإن البيت المدلل يخرج طفلًا اتكاليًّا وغير ناضج؛ وبالتالى يكون آبًا أنانيًّا فى المستقبل أو امرأة غير مفطومة عاطفيًّا تدخل الحياة الأسرية وهى غير مدركة لمفهوم الأبوة الحقيقى، ومثل هذه المرأة تكون زوجة غير فاهمة وغير مدركة لدورها الأنثوى فى الأسرة؛ وبالتالى تفاجئ بصدمة فى حياتها الأسرية وتحيط الشكوك بدورها الأمومى فى الأسرة، وإن الأخصائية الاجتماعية وعلماء النفس والأخصائيين النفسيين الاستشاريين يدللون على مثل هذه الزيجات الكثيرة بسبب عدم الإعداد المناسب للزواج، ويركزون على دور الزوجة فى سعادة وتكيف الأسرة.

وإن الزوج أيضًا إن كان مدللًا ولم يفطم عاطفيًّا فى حياته الطفولية فإنه يواجه

صعوبة فى الحياة الأسرية ولا يستطيع أن يقدم الولاء والحب لأفراد أسرته، وخاصة إذا كان تحت التأثير العاطفى لوالدته فإنه يقارن بين زوجته وأمه، ولا يستطيع أن يتفهم المفاهيم الأسرية السليمة، وإن المؤلف قد قابل حالات كثيرة اتضح منها ذلك الموضح أعلاه بسبب الموقف العاطفى والطفولى من الزوج تجاه والدته، حيث كبر الزوج وهو غير متكيف وغير قادر على تسيير الأمور فى زواجه؛ حيث إنه لم يجد الأنثى التى تحل محل أمه من وجهة نظره.

إن الحياة المنزلية والأسرية تتأثر بعملية عدم الفطام النفسى فى مرحلة الطفولة، ويؤثر ذلك ليس فقط على أحد الأزواج أو الطرفين معًا بل وعلى الأطفال أيضًا.

ولنضرب مثلًا على أم قد دللت وأفسدت فى طفولتها وكبرت وعندها مفاهيم الأنانية والتسلط فإنها تجد صعوبة فى تكوين أسرة وتكافؤ مع زوجها، ولا تستطيع أن تزيل أوهام زوجها وهمومه فمثل هذه الأم يكون لديها من حدة الطبع والمشاكسة الطفولية وحب الذات وبالتالى تكون عصبية باستمرار وغاضبة سواء ظهر عليها أم لم يظهر، وهكذا يكون هناك سوء تفاهم وعدم تقبل بينها وبين زوجها، مثل هذا الاحتمال الودى الذى يجب أن يكون متوافرًا بين الزوج وزوجته يكون مفقودًا وبالتالى ينعكس هذا الاضطراب والقلق على الزوج فى عمله وفى علاقاته مع أصحابه وعلى أطفاله وينتج عنه كثير من الأمراض العصبية والآلام النفسية، وهكذا نجد أن الأم نفسها غير مقبولة داخل نطاق الأسرة وفى بعض الأحيان تعلب تلك الأم المريضة دورًا تقنع نفسها بأن أطفالها يهتمون بها ولا يهتمون بالزوج، وأن هذا يعتبر سلوكًا صبيانيًا طفوليًا يخضع لمؤثرات غير واعية تحركها تجاه عملية حب التملك ويؤثر على شخصياتها ومسئولياتها تجاه الأسرة.

ونتيجة لذلك تتلاشى شخصية أولادها وتذوب فى شخصية الأم المتسلطة، ويصبح الولد ابن أمه وتصطبغ شخصيته بطباع الأم المتسلطة وتلازمه هذه الصفات حتى يكبر وتنعكس على زوج البيت فى المستقبل الذى يسير أمور بيته

بالكراهية، وكذلك الفتاة التى تنشأ فى هذا البيت تتمثل والدتها وعاداتها وتقاليدها رضوخًا من الجنس المخالف.

ومن هنا نجد الآباء الذين يسيطرون على أبنائهم ويلغون شخصياتهم أو يدللون أبناءهم بمظاهر الترف والممتلكات الكثيرة ويحاولون أن يبرروا سلوك أطفالهم الصحيح وغير الصحيح وبذلك يسيئون إلى أبنائهم ويدمرونهم، فبدلًا من أن يتعلموا الاعتماد على النفس والاهتمام بشخصياتهم يعلمونهم الاتكالية، وبدلًا من أن يتعلموا حسن التدبير والتقشف يتعلمون التبذير والإسراف، وبدلًا من أن يتعلموا أن يعيشوا فى انسجام مع الآخرين يتعلمون الأنانية والانطوائية، وبدلًا من التعاون يتعلمون حب الذات، وبدلًا من أن يتحكموا فى أنفسهم يتركون أنفسهم للهرب والتيارات الخاطئة، وهكذا فالبيت الذى يطيل فترة الاعتمادية والاتكالية لدى الأطفال يخرج للمجتمع أفرادًا خطرين وغير متكيفين مع المجتمع.

الصراع الأبوى المتداخل :

إن الصراع الأبوى المتداخل من المحتمل أن يكون أقل فى حدته من الصراع الطفولى الطويل فى فترة المراهقة، وحينما يحدث هذا الصراع فإنه يولد عدم الانسجام وعدم الرضا فى الأسرة، إن التكيف الناضج يكون مرغوبًا ومهمًّا داخل الأسرة الواحدة، وحيث يوجد الضغط والعنف توجد الأسرة غير المتكيفة المليئة بالكراهية والمرارة إن حب الذات لدى كل شخص ولكن الزوج إذا لم يستطع أن يتخلى عن حب ذاته ويشارك فى حب الجميع فسوف توجد الكراهية وعدم السعادة، إن العيش فى انسجام وراحة ليس فطرة غريزية فى الجنس البشرى ولكن يجب أن يزرع الحب ويجب أن يتم التكيف مثله مثل أى شىء آخر فى الحياة، ولكى يتوفر الانسجام يجب أن يكون هناك جهد خلاق بين الطرفين فى الأسرة، وحيث لا توجد تلك المهارة فى تكوين الانسجام تتولد حالة من شد الأعصاب والشجار الدائم فى الأسرة، وتظهر الخلافات والتهديد بالانفصال والطلاق والنقد المستمر ويخلو البيت من العواطف، ولكن يجب أن يحل محل كل هذا الحب والاحترام.

إن قلة التكيف فى الأسرة يولد الصراع ولا يتم الاتفاق بين أفراد الأسرة على ترتيباتها أو التربية أو إنفاق الأموال أو أى مواضيع من الأمور التى تهم الأسرة، وتختلف الأسرة على مواضيع كثيرة أيضًا منها اختيار الأصدقاء والأماكن التى يذهبون إليها، أو كيفية قضاء وقت الفراغ بدلًا من التلاحم بين الأسرة يوجد دائمًا التهديد بالانفصال.

التأثير والآثار المترتبة على الأطفال :

إن أثر النزاعات والخلافات بين كبار الأسرة يكون كافيًا للتأثير على جميع شخصيات الأسرة وعلى الصحة الفكرية والنفسية لأفراد الأسرة، وإن جميع علماء الاجتماع والأخصائيين الاجتماعيين يتفقون على هذا المبدأ، ونستطيع أن نقول إن الطفل الذى يتربى فى بيت يكثر فيه الخلاف بين الأب والأم ويوجد فيه عدم استقرار - يشعر بحالة من عدم الأمان التى تؤدى إلى الشعور بالخوف والقلق وعدم نضوج الشخصية ونتائج غير قويمة تؤثر على الطفل فى حياته المستقبلية، وفى الغالب فإن الآباء يكونون قادرين على أن يحتفظوا بخلافاتهم بعيدًا عن الآخرين فى المجتمع، ولكن هذا لا يخدع الطفل الذى يتعايش فى البيت، إن مثل هذه الخلافات تجعل من الطفل شخصًا انطوائيًّا فبدلًا من أن يتعايش مع زملائه يكون منطويًا ويجلس وحيدًا ويشعر بالعزلة والغربة عن الآخرين، وتصبح كل اهتماماته واتجاهاته محصورة فى البيت فقط ولا يستطيع أن يكون صداقات فى المدرسة ... الخ، وقد يؤدى به هذا الانطواء إلى أن يدمن عملية القراءة فيصبح لا هم له إلا القراءة لكى يغرق فيها ويبعد عن المجتمع من حوله وهذا شعور وسلوك غير صحى، وقد يؤدى به الحال إلى أن يصبح ضعيف الشخصية ومنقادًا للآخرين بسهولة وعلى العكس من الطفل الذى نشأ فى جو من الرعاية، ويتناول الحب بين أفراد الأسرة تجد شخصيته قوية ويستطيع أن يكون من القادة والمتميزين فى الأنشطة وفى حياته المدرسية وجميع جوانب حياته.

البيت المحطم وآثاره:

الطلاق والبيوت المحطمة :

لا شك أن الأخطاء والآثام التى يرتكبها الأطفال ترجع إلى البيوت غير المناسبة أو البيوت المدمرة، ومن المعروف أن مشكلات الأطفال على وجه العموم يرجع سببها إلى البيوت غير السعيدة على عكس البيئة السعيدة والبيت السعيد، ولو أن الأزواج أعادوا حل مشكلاتهم لكان خيرًا لهم ولأطفالهم من حل الطلاق وأن الاختلافات فى وجهات النظر أو الاختلافات بين الأزواج ممكن أن يتم حلها من أجل مصلحة الأولاد ولئلا تصل إلى تحطيم البيوت، فإن الجو فى البيت المحطم دائمًا ما يكون مليئًا بالاضطرابات والإزعاجات؛ وذلك يؤدى إلى تدمير وإضعاف شخصية الأطفال داخل البيت وخارجه، وإن المؤلف لا يتحيز إلى الطلاق أبدًا حيث إنه السبب فى وجود حالات كثيرة من الأطفال مشردة ومحطمة وسببها كان تلك الظروف السيئة التى عانوها فى بيوتهم ... إن مثل هذه البيوت تجلب الطلاق والانفصال ويكون لها من الآثار السلبية على أطفالها الكم الكبير ويهتم علماء الاجتماع والأخصائيون الاجتماعيون بمثل هذه البيوت.

آثار الانفصال على الأطفال :

إن الانفصال الأبوى سواء أكان بسبب الطلاق أو غيره إنما يكون له تأثيره الخطير على الحالة العاطفية ويخلق مشكلات جديدة ومحبطة لعمليات التكيف الاجتماعى لدى الأطفال، وكما قلنا سابقًا إن أحد الدعائم الأساسية للتكيف المناسب هى الإحساس بالأمان والصبر والاحتمال الذى يخبره أطفاله وعندما يضيع هذا الشعور فإن الشخص يرى بيته يتحطم من حوله وإن آثار هذا التحطيم تكون مرعبة وفظيعة.

ولو أن هذا الطفل ذهب ليعيش مع قريب له فإن ذلك يعتمد على كمية العواطف والتفاهم التى نالها فى طفولته ولو ظل تحت رقابة أحد الأبوين المنفصلين

فإنه سوف يتلقى من الطرف الذى يعيش معه ما يبغضه ويكرهه فى الطرف الآخر وبغض النظر عن الانفصال فإن طفل الأبوين المنفصلين يفقد إحساسه بالأمان ويفقد ولاءه للبيت ولجميع العواطف النبيلة وسوف تتكون عنده عواطف المرارة والخجل والانطوائية والغضب بدلًا من العواطف البديلة لها والناضجة وتتأصل فى سلوكه وإحساسه الداخلى وبالتالى ستقوده إلى الاستهزاء والسخرية من الآخرين وإلى الكسل والصراع الداخلى فى شخصيته.

البيوت الجاهلة :

توجد بيوت كثيرة لا تعانى خطر التحطيم فمعظمها لا هى محطمة ولا هى غير منسجمة ففيها يكون الآباء جاهلين وفيها لا توجد الرعاية أو الولاية الحقيقية للأسرة فالآباء ليس لديهم من الخلفية الثقافية والتفاهم الذى يجعلهم يؤدون واجباتهم تجاه بيوتهم ولا يعلمون عن مسئوليات الأسرة والبيت السعيد ومقوماته شيئًا فمثل هذه الحالات قد تشتمل على :

١- الاتجاه نحو الطفل.

٢- الاتجاه نحو المدرسة.

٣- ظروف فى البيت.

٤- الحالة النفسية الأسرية.

ومعظم هذه الاتهامات والشكاوى ترجع إلى الجهل الذى له تأثير شديد على الأطفال الصغار فى السن؛ حيث إن التسامح الذى لا حد له يؤدى إلى تدليل الطفل ويجعله صبيانيًا والقسوة الشديدة تؤدى إلى التمرد والعصيان والهروب ونقص الإشراف الأبوى يؤدى إلى نمو العادات السيئة مثل التبلد والتقصير وإن عدم التعاون بين الآباء وبين المدرسة يؤدى إلى اللامبالاة وإلى النقد غير البناء وإن نقص الطموح الأبوى يؤدى إلى توليد مشاعر القلق والمخاوف والعصبية وكذلك النقص العضوى وعدم توفير فرص الدراسة والنوم واللعب تهدم صحة الطفل وتجعله

يسعى إلى الصحبة الخارجية والإدمان والوقوع فى الأخطاء. وعلى الرغم مما كتب منذ ثلاثين عامًا فقد أوضحت Miss Reynolds أن نتائج المعاينة للبيت والأحوال الأسرية فى ٤٠٠ حالة من مشكلات الأطفال أوضحت أن أكثر من نصف الآباء جاهلون لدرجة أنهم لا يتعايشون مع الحياة العامة من حولهم وأن ٨٠٪ من الأطفال فشلوا فى أن يجدوا البيت المناسب والعناية بهم وذلك يشمل التدريب من أجل التعايش مع الناس الآخرين.

مشكلة النظام والتأديب :

لا توجد مشكلة فى الحياة الأسرية تتأثر بالجهل أكثر من مشكلة النظام المتعلقة بالصغار، إن وسائل التخويف والإبكاء والعنف والزجر لا تزال خاضعة للقانون الأسرى فى حين أن المدارس لا تشجع على التخويف كوسيلة ولا تعتبر نفسها مؤسسات إجبارية ونجد أن الآباء ما زالوا يمارسون التهديدات ويلهبون أبناءهم بسياط ألسنتهم وإن استخدام هذه الطرق العنيفة تنشأ لأن الآباء فشلوا فى أن يدركوا أن الطفل هو الطفل تحكمه قوانين الطفولة وهو ليس ببالغ تحكمه قوانين البلوغ والكبار.

ويوجد فى مثل هذه البيوت الآتى :

- العصيان : وفيه يقوم الطفل بفعل أشياء خارج أوامر الوالدين من وجهة نظرهم.
- عدم الثقة : أى أن الطفل يخدع الآباء.
- النسيان : وفيه ينسى الطفل ويفشل فى أن يتذكر تفاصيل ما ذاكره.
- إهمال بعض المسئوليات : مثل تعليق ملابسه أو فعل الواجبات المنزلية.
- الوقاحة وعدم الأدب.
- عدم التفكير الجاد : وعدم مراعاة شعور الآخرين وإزعاجهم.

من الواضح من هذه المواقف السابقة أن الطفل يكون عنده عدم نضج وعدم خبرة وعدم تطابق بين ما يراه الطفل وبين ما هو مطلوب من وجهة نظر الوالدين.

إن البالغ يفقد صبره وينهمك فى الإفراط والتبذير فى مشاعره غير البناءة وذلك كرد فعل لعقاب الوالدين غير الواعى ومن المحتمل أن يكون هذا التهديد تهديد للمستقبل ومن المحتمل أن يكون التهديد باللهجة الساخنة المؤذية، وقد يكون نوعًا من أنواع الضرب وذلك يعتمد على نوعية مزاج الآباء فى وقت ارتكاب الخطأ، إن البالغين من الأولاد يعرفون أهمية الطاعة والثقة والإخلاص والولاء والإيمان ولكن الأطفال الصغار لا يعرفون قيمة هذه الأشياء ولذلك من المتوقع أن يرتكبوا هذه الأخطاء دون أن يدركوا أنهم مخطئون، إن النظام الواعى يأخذ فى اعتباره عدم حكمة الأطفال وقلة تقديرهم الأشياء.

فى بعض البيوت يوجد عدم اتفاق بين الآباء فى موضوعات كثيرة خاصة بالنظام الخاص بالأطفال فأحد الآباء قد يكون متساهلًا وقد يكون الآخر حازمًا أحدهم يسمح للأطفال أن يفعلوا أى شىء يطلبونه والآخر دائمًا يقول لا وفى الأحيان التى يعيش فيها الأجداد فى البيت تكون الصعوبة أكبر بل الأكثر من ذلك فالأب الحازم ينتقد الأب المتساهل.

لو أن النظام فى البيت يقل إلى الحد الأدنى يصبح من الضرورى أن الأعضاء البالغين سوف يوافقون على المستوى المسموح به للأطفال وهذا يضفى جوًّا من التفاهم والتكيف السليم بدون الضغط الأسرى والإجهادات الكثيرة، وإذا عاش الطفل فى بيت به كبار ولكنهم ما زال لديهم الاتجاه العاطفى الطفلى فإنهم تنشأ بينهم صلات ضعيفة ونظام غير سليم وغير متكافئ.

أهمية السنين الأولى فى الحياة :

إن العلماء النفسيين لديهم الحق عندما يعربون على أن السنوات الأولى فى حياة الطفولة هى أهم السنين فى حياة الفرد وذلك من خلال السنوات الثلاث أو الأربع

الأولى التى تتشكل فيها العادات الجسمية والعاطفية التى تتحكم فى الحياة التالية ولقد لخصت Miss Bassett ضعف الشخصية الذى ينتج عن إهمال الآباء لأطفالهم الصغار.

إن رد الفعل العاطفى القوى عند الكبار نتيجة لخداع أطفالهم وخاصة فى مراحل الطفولة المبكرة له تأثير كبير على بناء شخصياتهم وخاصة عمليات الدهاء والمكر أو الاستهزاء أو الأحضان الكاذبة لها تأثير على تكيفهم فى المستقبل ويجب أن تكون الرعاية معتدلة فى الصغر وغير مبالغ فيها فلا يجب إجبار الطفل على أن يأكل أو يشرب ولا يجب الضغط عليه لدرجة أنه يشتكى ويبكى ويزعج جيرانه ويلاحظ أن الطفل يكون لديه فى الصغر الغيرة من الأطفال الآخرين وخاصة الموجودين فى البيت ولهذه الأسباب الكثيرة يتأثر تكيف الطفل فيما بعد ولو أن الآباء يدركون أن البدايات الضعيفة فى التربية تؤدى إلى الضعف المستمر فيما بعد لاستطاعوا أن يبقوا على أولادهم ويحسنون تربيتهم.

الأخصائى النفسى والأسرة :

إن الأخصائى النفسى يجب أن يتوقع أن يجد الأسرة كما هى ولا ينتظر أسرة مثالية كما يراها علماء النفس وعلماء الصحة فسوف يجدها بكل مخاوفها وصراعاتها والخرافات والخزعبلات بها وأيضًا عدم التكيف الزواجى بقلقها على الأطفال والجيران بالإضافة إلى المشكلات المالية ومشكلات الزواج، وسوف يجد حالة عدم استقرار لدى الأمهات وكذلك الآباء ومن المحتمل أن يجد جهلًا كثيرًا فى التربية وكذلك الأحوال الغذائية ولا يجب عليه أن يواجه هذه المشكلات كناقد لها أو كقاض يحكم ويعاقب على الأمور ولكن كشخص مهنى يتفهم مناطق الضعف الإنسانى ويجب أن يواجه مثل هذه المواقف برد فعل مساعد ومبتهج، وفوق كل هذا فالقيم الإنسانية يجب أن تتوفر فى عمله كرعاية طفل مريض أو أم حامل ويشبع جو من الطمأنينة والسعادة على البيت وسوف يلاقى كثيرًا من الحب والاحترام.

وبمهاراته المهنية ورجاحة عقله يستطيع أن يخفف عن أولئك الناس الذين يعانون وهو يساهم فى إشعاع جو من الود والصفاء والحب فى البيت ويجب أن يكون لديه الكثير من الحكمة والثبات فى الشخصية ويجب أن يكون لديه القدرة فى الاستخدام الذكى لكل معارفه ومعلوماته التى تعلمها بالمدرسة أو فى الحياة.

وبعـــد ...

فإن الأسرة بعناصرها الأساسية من الزوج والزوجة والأولاد لكل منهم دور معين وملائم حتى يكون هناك جو ملائم ومناسب فى التكوين الأسرى السليم، فالزوج لا بد أن يكون القدوة فى تصرفاته وأفعاله فى بيته لأن تصرفات الزوج أى (الأب) تكون محسوبة عليه لأن الأطفال فى الصغر يقلدون آباءهم تقليدًا أعمى بصرف النظر عن صحة هذا التقليد من عدمه هل هو تقليد سليم ومناسب أم هو تقليد غير مناسب؟ فالأب لا بد أن تكون جميع تصرفاته كلها لائقة وسليمة حتى ينشأ الأطفال والأولاد فى حالة جيدة، وأن يعودهم الأب على النظام واحترام المواعيد. وكذلك الزوجة لا بد أن توفر للبيت الهدوء الكامل والجو الملائم والمناسب حتى تكون الأسرة فى حالة جدية ويعيش من فيها فى حب واطمئنان وبذلك ينشأ المجتمع بأكمله فى حب وسلام بعيدًا عن الانحراف والأفكار الهدامة التى قد تؤدى آثارها إلى الجهل بالأمور والمعتقدات الغريبة التى قد تؤدى بالمجتمع إلى الهلاك فالأسرة هى النواة الأساسية لنشأة الفرد تنشئة قويمة منذ الصغر.

دور الأب فى تربية الأطفال

إن مستقبل العالم يكمن فى أطفال اليوم، وعلى الأم أن تكون قريبة إلى طفلها ودودة معه تأخذه بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها ليشعر أنها هى كل دنياه وعلى الأب أن يضعه فى موقف يتعرف من خلاله على حقيقة دنياه.

من الملاحظ أن الآباء يكثرون الحديث مع أبنائهم أكثر مما هو الحال مع بناتهم، وأن حديث الأطفال يكثر مع أمهاتهم ويقل مع أبائهم أو مع بعضهم بعضًا.

ويقول بعض الباحثين إن هناك رابطًا فسيولوجيًّا بين الأم وطفلها مما يجعل الآباء أقل استمتاعًا وقدرة بل أقل أهمية من الأم فى تربية أطفالها والعناية بهم، بينما يرى بعضهم أن لطول الفترة التى تقضيها الأم مع طفلها أثرًا فى ذلك فى الوقت الذى لا يعتبره آخرون عاملًا فى تقوية ما بينهما من روابط.

إن حضور الآباء فى حياة أطفالهم والتواصل معهم عامل مهم وحاسم فى إطلاع الطفل على حقائق المجتمع الذى يعيش فيه، وفى القدرة على التواصل مع الذكور وتشكيل الصورة التى يحملها الطفل عن نفسه، وفى تقلبه للجنس الذى ينتمى إليه والشعور بالأمن والطمأنينة وبخاصة فى السنوات الأولى من حياته وفترة نموه ويزداد دور الأم فى هذه الفترة.

لا شك أن الطفل قد يقبل على والده كما يقبل على والدته غير أن الأم لها خصائص طبيعية ليس عند الأب مثلها؛ الأمر الذى يمكنها من القيام بدور الأمومة وكذلك الحال بالنسبة للرجل ليقوم بدور الأبوة. فالحمل والولادة والإرضاع تجعل من السهل على الأم أن تلتصق بطفلها وتقبل عليه ويقبل هو بدوره عليها وإن لم تكن لديه معرفة مسبقة بالإقبال عليها أكثر من إقباله على أبيه، هناك ما يشير إلى أنه يمكن أن يكون لكل من الأب والأم على الطفل التأثير الذى للآخر، غير أن لكل منهما فى ذلك أسلوبه الخاص، فليست المشكلة أن تكون أبًا أو أمًّا وإنما المشكلة هى القيام بدور الأمومة وبدور الأبوة.

فقد سنت المجتمعات شرائع وقوانين حول احتياجات الآباء ومتطلباتهم. إنهم أى الأطفال يشعرون بارتياح أكبر وقوة وفاعلية كلما أسهم الآباء فى توفير المساندة العاطفية لهم، فى الوقت الذى توجد فيه فروق بارزة فى نوع الأسلوب الذى ينجذب الطفل به إلى أمه، وذلك الذى ينجذب فيه إلى أبيه، فالأب يستطيع أن يقوم بقسط وافر من الدور الذى تقوم به الأم إذ يمكنه أن يكون الحارس لطفله وكذلك الحافز والمانح والمربى ومع هذا يبقى السؤال ما الدور الذى يقدر الأب على القيام به؟ وما الفرق بين أن يكون الواحد منا أبًا أو أمًّا؟

لقد أظهرت بعض الدراسات فى هذا المجال أن الطفل يبدو عليه القلق والتوتر إذا ما غاب عنه أبوه أو أمه، فعن طريقهما يدخل عالم المجتمع من حوله وتزيد قدرته على الاتصال بأترابه وبزملائه وبغيرهم من أفراد المجتمع.

إن الأم أقدر من الأب على القيام بخدمة الطفل حين تبدل له ثيابه أو تطعمه أو تأخذه إلى الحمام ليستحم، بينما الأب يميل إلى الذكور وبشكل يزداد مع الزمن وقد أظهرت بعض الدراسات مع عائلات من الطبقتين الوسطى والفقيرة، أن لا فرق ظاهرًا بين قيام الأب على شئون أطفاله وبين قيام الأم بذلك سواء فى حمايتهم أو إطعامهم أو تبديل ملابسهم أو اللعب معهم وفى الاستجابة لمتطلباتهم وتنشئة العادات عندهم، وإن كانوا يتركون ذلك كله أو معظمه للأم إذا ما كانا معًا بصحبة أطفالهم، فلدى الأم ميل أقوى لتعليم طفلها الانضباط الداخلى والالتزام الذاتى بذلك والمحافظة على توازنه فى أثناء ممارسته للأنشطة التى يقوم بها.

وكلما قوى التعاون بين الأب والأم فى تنشئة الأطفال كان ذلك أكثر فائدة وأقوى أثرًا كما يفيد الطفل بشكل أكبر إذا ما تعامل مع أكثر من نمط أو أسلوب فى سلوكه وتصرفاته وهو قادر على التمييز بين هذه الأنماط بما يفيده فى تلبية متطلباته وحاجاته.

وقد يقوم الأب بدور الأم أو بجزء منه إذا كانت الأم عاملة وإن كانت لا تنظر تقاليد بعض المجتمعات بعين الارتياح لمثل هذا الدور وإن كادت هذه النظرة أن تتلاشى وتزول فى المجتمعات الزراعية أو القبلية.

وعندما يصبحون آباء تراهم يجاهدون بنشاط أكبر لحماية حقوقهم، فالتغير الذى نشأ وتطور فى حياتنا نتيجة ما نواجه من ضغوطات اقتصادية دفعت كلًا من الأب والأم للعمل وأحدثت أثرها فى تبادل الأدوار وتكاملها للقيام على تنشئة الطفل ورعايته.

وتقول (ويلزلى ليلاين) من مركز كلية (ويزلى) للأبحاث :

ليس المهم أن تكل إلى الأب دور القيام على تربية الطفل وإنما الأهم من هذا هو شعوره الداخلى بمسئوليته هذه وقوة وجدانه العاطفى للقيام بهذا الدور وهو ما لا يتفق له القيام به كما يتفق للأم.

علينا أن نبحث علاقات ما بين أفراد الأسرة باعتبارها وحدة واحدة وليس مجرد علاقة أحد الأطفال بأحد الأبوين أو علاقة أحدهما بالأطفال جميعًا، وعلى هذا علينا أن ننظر إلى دور الأب كدور اختيارى تطوعى حين الحاجة إليه، مع قليل من الأخذ بيده وتدريبه وتثقيفه ثقافة أسرية وعندما يمكن له أن يصبح أبًا صالحًا وهذا يتوقف على مدى رغبته فى ذلك وعلى عزمه على القيام بذلك، ومن هنا كان الأمر كله يتوقف على قرار الأب نفسه الذى يتخذه ويرغب فيه وعنده الإرادة على القيام به وتنفيذه.

دور الأب بمنظار جديد

لقد ساد اعتقاد مؤداه أن الارتباط البيولوجى بين الأم وطفلها من شأنه أن يجعل الأب أقل من الأم قدرة على الاهتمام بطفله والقيام على رعايته، والاستمتاع بتربيته.

لقد بنت المحاكم قراراتها على هذا الاعتقاد وفى كل ما يتعلق بهذا الخصوص، وعالج الأطباء مرضاهم على هذا الأسس كما بنى الرجال والنساء اختياراتهم فى الحياة بناء على ذلك، ونظرًا لإقبال الأمهات المتزايد على العمل كان لمفهوم الأبوة الجديدة أهميته فيما يتعلق بنشأة الأطفال وتربيتهم، لأن هذا بدوره يعمل على تقرير نوع المجتمع فى المستقبل.

لقد ركز الباحثون فى العقود الماضية على دور الأب باعتباره دورًا نموذجيًّا أو من خلال البحث عن الأثر الذى يتركه غيابه فى العائلة التى افتقدت الأب بالموت أو الطلاق أو الذهاب للحرب وقد احتل الأب مكانته فى العصر الأوديبى حين نافس الابن أباه فى حب الأم.

لقد نظرت نظريات النمو الاجتماعى لعلاقة الأم بطفلها باعتبارها علاقة فريدة تفوق فى أهميتها غيرها من العلاقات الأخرى حتى لقد اعتبرتها النموذج الأصيل لكل علاقة تتميز بالقوة والصدق، وقد حددها علماء السلوك بأنها الرغبة فى البقاء قرب شخص معين، أما (مايكل لويس)[1] فيقول إنها ميزة نشأت وتطورت إلى أن أصبحت رباطًا فريدًا بين الرضيع وأمه، وهى ضرورية لأى نمو أو تطور آخر عنده.

وبناءً على ذلك فقد درس كثير من الباحثين حقيقة التفاعل بين الأم وطفلها وحاولوا الكشف عن طبيعة العلاقة المبكرة بين الرضيع ومربيته دون أن يتعرضوا فى دراستهم هذه للآباء.

إن تداعى الأب للبيت وإقامته علاقة مع الأطفال لا تقل أهميته عن وجود الأم وعلاقتها معهم، وإن كان كل منهما يثرى الطفل بعلاقته معه من زاوية أخرى تعتبر تكملة للأولى، فللأب أثر حاسم ومهم فى تعريف الطفل بوظيفته الاجتماعية، وفى مقدرته على الاتصال بالذكور وفى تكوين المفاهيم الذاتية وفى تقبله إلى حقيقته الجنسية أى لنوع الجنس الذى ينتمى إليه طفله وشعوره بالأمن والطمأنينة وستكون الأم أكثر نجاحًا فى مهمتها إذا حظيت بمساعدة الأب ومساندته العاطفية.

ومع أنه يمكن لكل من الأب والأم أن يكون معطاء لطفله وأن يقوم بدور الحماية له قادرًا على العناية به والرعاية له، إلا أن هناك فرقًا ظاهرًا فى الطريقة التى يرتبط بها الطفل مع كل من أمه وأبيه وبناء عليه يبرز لنا السؤال التالى :

ما الدور المتميز لكل من الأب والأم؟ وما الفرق بين أن تكون أبًا أو أن تكون أمًّا؟ إن القلق يظهر على الرضيع إذا ما تركه أبوه، وهناك فروق ضئيلة ظاهرة بين

---

(١) أحد علماء النفس الأمريكان.

الأسلوب الذى يتعلق به الرضيع بكل من أمه وأبيه، وقد قرر الباحثون أنه لا فرق فسيولوجى بين رد فعل كل من الأب والأم إذا ما سمعا طفلهما يصرخ، فدرجة الأسى والألم عند كل منهما متساوية إذ يبدو على الأب عدم الارتياح، يعلو ضغطه ويتململ فى جلسته وتزداد نبضات قلبه.

إن وجود الأب أمر حيوى للطفل وأثره على نموه وشعوره ليس موضع جدل أو نقاش وللطفل ردود فعل متميزة ومتنوعة بالنسبة لكل من الأب والأم والناس الغرباء، وهو بحاجة إلى اثنين مختلفين يتفاعل معهما ليتعلم مما حوله ويتعرف عليه كما يتبع أسلوبين مختلفين فى تعامله مع كل من أبيه وأمه، الأمر الذى يوحى بحاجته إلى شخصين مختلفين كأمه وأبيه يتعامل معهما ليفيا باحتياجاته، وقد تكون استجابته لكل منهما متميزة بشكل بارز. إن الأب يلعب دورًا مهمًّا فى النمو السيكولوجى عند الطفل فى سنتيه الأولى والثانية، وبشكل يختلف فى ذلك عن دور الأم وإن كان كل من الدورين يعتبر مكملًا للدور الآخر.

إن الأب – ولا شك – يقوم بدوره فى العناية بطفله فى كل المجتمعات وإن اختلف هذا الدور فى الطريقة والأسلوب وفى زمن هذا الدور ومدته، أن لكل من الأب والأم دوره فى تربية ناشئته وأثره فى ذلك لقد أصبحت مشاركة الأب فى القيام على تربية أطفاله مسألة ملحة بالنسبة للنساء ما دامت الأكثرية مضطرة للعمل خارج المنزل وهن يتطلبن من الرجال أن يقوموا بدورهم بطريقة تتفق ومفاهيمهن الجديدة عن الكيفية التى سيقضين بها حياتهن.

إن الأمر المهم الذى يفتقر إليه الأب هو شعوره بالإحساس العاطفى تجاه الأطفال، فالمسألة ليست مجرد القيام على تنشئتهم بتقديم الخدمات الضرورية لهم، وإنما بالإحساس الداخلى العميق تجاههم والشعور بالمسئولية المترتبة على تربيتهم وهو البعد الإضافى للاتصال العاطفى.

وقد يكون هناك تنافس بين الأبوين فى أمر تربية الأطفال، والكل يتطلب من

الرجال أن يقدم المزيد فى هذه السبيل ولكن الأمر التالى هو الإتقان لما يقوم به وقد يتقنه ويستمتع به إلا أن هذا بدوره يؤدى إلى خلق المشكلات بين الطرفين فالآباء الذين يقومون بدور مساو لدور الأم قد يهددونهن فى دورهن الطبيعى والطليعى كذلك.

ويرى آخرون أن يترك الخيار للأب للقيام بالدور الذى يرغب فيه، وأن يتم ذلك بشىء من التدريب ونوع من التوعية بدورهم إذا أرادوا ذلك فهم يملكون لذلك الكفاية والقدرة الضرورية، ولكنهم سيظلون يفتقرون إلى المعرفة الضرورية بالطفل والعامل المهم فى بنائه ونموه، ومع هذا يبقى القرار الأخير للإباء أنفسهم فى الإفادة مما يقدرون.

لقد أصبحت النظرة لهذا الموضوع تنحصر فى إطار العمل المشترك والمتكامل للأسرة ومن منظور النظام العائلى، إذ من المفروض أن تكون هناك مشاركة إيجابية وتفاهم مشترك بين كل من الأب والأم فى رعايتهما للأطفال وقيامهما على شئونهم.

ويمكن لكل من الأبوين أن يقوم على رعاية أبنائه بشكل جيد إذا ما توفرت له الرغبة فى ذلك ومع قليل من التدريب؛ لأن عند كل منهما القدرة والكفاية ودفء العاطفة للقيام بذلك على أن يقوم الواحد منهم بإقرار ذلك وتحديده.

وبحكم ما وهب الله سبحانه الأم من خصائص لا تتوافر عند الأب يكون الطفل أقرب إلى أمه وبخاصة فى السنوات الأولى من حياته، فقد حبا الله كلًّا من الأبوين بخصائص تختلف عن خصائص الآخر ولكنها مهمة بالنسبة لتربية الأطفال من كلا الجنسين، فالأم بما عندها من عاطفة وحنان ومن جلد وصبر على القيام بحاجاتهم اليومية يجعلها أقدر من الرجل على القيام بهذه المهمة بحكم تكوينها البيولوجى وما تتمتع به من خصائص أنثوية وعاطفية، ولكنه مع التقدم فى العمر والتقدم فى مراحل النمو وبخاصة مرحلة المراهقة والبلوغ يصبح لنوعية الجنس أثره عند الطرفين ويصعب أن يقوم أحدهما بدور الآخر، حيث يصبح

الذكور بحاجة أكبر إلى الأب لتنمية جانب الذكورة عندهم والإحساس الداخلى بها، فإن للذكورة سماتها المميزة التى تصبح موضع فخر وإعجاب عند الشباب منهم، وكذلك الحال بالنسبة للإناث فهن فى هذه المرحلة أيضًا أقرب إلى أمهاتهن من الآباء بحكم الأنوثة، فالبنت وبخاصة إذا ما وجدت من أمها الرعاية والحنان اللازمين جعلت منها صديقة لها تبوح لها بأسرارها وتطمئن إلى حديثها وتستشيرها فى ما يعرض لها من أمور، وبخاصة إذا ما وجدت منها تفهمًا لاحتياجاتها ومشاركتها همومها ووجدت منها أذنًا مصغية.

وهناك الكثير من الأمور التى تعرض للبنت فى هذه المرحلة من العمر تجعلها تخجل من أن تبوح بها للأب فى الوقت الذى لا تجد فيه حرجًا بالنسبة للأم؛ لأنهما من جنس واحد والأم أقدر فى هذه الحالة على تفهم أوضاع ابنتها ومعالجتها من أبيها بحكم طبيعتها الأنثوية، وكذلك الحال بالنسبة للولد مع الأب لما يجمع بينهما من صفات مشتركة وإحساس مشترك وتفهم مشترك لطبيعة الجنس الذى ينتميان إليه.

لقد وجد كذلك أن القدرة على التكيف عند الأطفال الكبار تعتمد – وبشكل واضح – على علاقة الأم بهم فى الشهور الأولى من حياتهم، كما أن نمو الطفل وتطوره يعتمد كثيرًا على الكبير الذى يعنى به ويقوم على خدمته فى أول حياته حتى ولو لم يقض معه اليوم كله، ويزداد أثر المربية فى الطفل كلما ازدادت الفترة الزمنية التى تقضيها معه، وهو أمر متوفر للأم وبخاصة فى سنى حياته الأولى.